سلسلة مباحث لدراسات منهجية للنص القرآني في ضوء الاعجاز البلاغي

الدكتور

عباس حميد مجيد

جامعة الانبار/ كلية التربية للبنات

قسم اللغة العربية

الاتجاهات الاسلوبية والاساليب البلاغية في النص القرآني ـ سورة المائدة ـ

سورة المائدة سميت بهذا الاسم لان فيها قصة المائدة التي سألها الحواريون من عيسى (عليه السلام) . وسميت بالمنقذة ، والصحابة رضي الله عنهم كانوا يسمون سورة المائدة بسورة الاخيار .

قال جرير :

إن البعيث وعبد آل مقاعس لا يقرآن بسورة الاحبار [١]

كناية عن عدم الايفاء بالعهد .

وتسمى سورة العقود، وبها تم الدين، فهي سورة التكميل ، بها ذكر الوسائل كما في الانعام والاعراف ذكر المقاصد، كالتحليل والتحريم ، كتحريم الدماء والاموال، وعقوبة المعتدين . وتحريم الخمر من تمام حفظ العقل والدين ، وتحريم الميتة والدم والمنخنقة ، وتحريم الصيد على المحرم من تمام الاحرام، واحلال الطيبات من تمام عبادة الله. وفي سورة النساء تحريم السكر عند الصلوات خاصة، وفي سورة المائدة تحريمه بتاتاً [٢] .وقد احتوت هذه السورة على تشريعات كثيرة تنبىء بأنها أنزلت لاستكمال شرائع الاسلام، لذلك جاء قوله تعالى في هذه السورة : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً**﴾ [٣] .

إفتتاح السورة:

يعدّ افتتاح الكلام دليلاً على ما هو متوار وخفي ومضمر، وقد يتأسس من بدايات الكلام متوالية من المعاني تعلن في اكتمالها الاخير عن منهج ما . فالمفتتح يوجه الفكرة أو يحثها الى أن تتصل وتنمو وتتوحد نحو الغرض العام [٤] .

وقد جاء هذا التوحد نحو الغرض في سورة المائدة واضحاً لمن يحسن الامعان في ترتيب الآيات وترابطها مع بعضها ومع اوائل السورة وخاتمتها ومع ما يجاورها من سور .

فإن تصدير سورة المائدة بالامر بالإيفاء بالعقود: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ [٥] يأخذ اتجاهين أسلوبيين من اساليب القرآن الكريم في توجيه معانيه .

الاول: ان هذا التصدير بالامر بالايفاء بالعقود مؤذن بأن سترد بعده أحكام وعقود كانت قد عقدت من الله على المؤمنين إجمالاً وتفصيلاً ذكّرهم بها لان عليهم الايفاء بما عاقدوا الله عليه، وذلك براعة استهلال [٦] .

وقد فسّر الزمخشري قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ [٧] بأنه :" كلام قدم مجملاً ثم عقب بالتفصيل،وهو قوله تعالى : أحلت لكم ..." وما بعده [٨] .

والاتجاه الآخر : إن التصدير بالامر بالايفاء بالعقود له اعتلاق بسورة النساء قبله. فسورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحاً وضمناً، فالصريح: عقود الانكحة ، وعقد الصداق، وعقد الحلف في قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾[٩] وعقد المعاهد والامان في قوله تعالى : ﴿**إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ**﴾ [١٠] وقوله : ﴿ **وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ** ﴾ [١١] .

والضمني : عقد الوصية والوديعة والوكالة والعارية والاجارة، وغير ذلك الداخل في عموم قوله تعالى: فناسب أن تعقب السورة مفتتحة بالامر بالعقود، وكأنه قيل : يا أيها الذين آمنوا اوفوا بالعقود التي فرغ من ذكرها في السورة التي تمت، فكان غاية التلاحم والتناسق والارتباط [١٢] .

وكلا الاسلوبين مرادان في توجيه معاني الايات وتناسقها والله أعلم .

ثم ان الافتتاح بالايفاء بالعقود مناسب لاختتام سورة النساء وأمره بالتوحيد والعدل بين العباد، فبيّن ما أجمله هناك .

وقد ختمت سورة المائدة بصفة القدرة قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٣] كما ختتمت سورة النساء بقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [١٤]. وافتتحت سورة النساء ببدء الخلق ، وختمت سورة المائدة بالمنتهى من البعث والجزاء، فكأنهما سورة واحدة اشتملت على الاحكام من المبتدأ الى المنتهى . وأول سورة النساء مشتمل على كمال تنزيه الله وسعته وقدرته وآخرها مشتمل على كمال العلم، وهذان الوصفان بهما تثبت الربوبية والالوهية والجلال والعزة وبهما يجب ان يكون العبد منقاداً للتكاليف. وإن الختم بكمال العلم مناسب لما في الآية، لانها تضمنت تفاصيل أحكام القرآن، وهذا التفصيل والهداية من الضلال يستدعي علم الفاعل لذلك [١٥] .

وقد جعلت سورة المائدة في المصحف قبل سورة الانعام، مع ان سورة الانعام أكثر منها عدد آيات : لعل ذلك لمراعاة اشتمال هذه السورة على أغراض تشبه ما اشتملت عليه سورة النساء عوناً على تبيين إحداهما للاخرى في تلك الاغراض [١٦].

أما افتتاح السورة بنداء الذين آمنوا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [١٧] فوقع خطاباً لاهل المدينة الذين آمنوا وهاجروا تمييزاً لهم عن أهل مكة ، وأنه يأتي بعد: " يا ايها الذين آمنوا " الامر بتفاصيل الشريعة [١٨] .

وقد جاء النداء بـ " يا " النداء الصريحة في مطالع عشر سورمفتتحة باسلوب النداء [١٩] وخطاب المندى في بنية النص القرآني له خصوصية اسلوبية متواترة، فاذا كان المنادى هو " الله " نحو قوله: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٢٠] جاء النداء بصيغة القريب في كل الاحوال . واذا كان المنادى هو الانسن جء النداء بصيغة البعيد نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ٠٠ ﴾[٢١] وقله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٠٠ ﴾[٢٢] وغير ذلك. فاذا كان المنادى هو الانسان، فإن ذكر " يا " مناسبة لهذا الانسان الذي يرغب في القرب وهو بعيد، أما اذا كان المخاطب "المنادى" هو الله سبحانه فإن الذي يناسب ذكر الله عدم ذكر" يا " وهو ايحاء بقرب الله من الانسان . و " يا " رمز للبعد في نظر الانسان ، فيكون عدم ذكر هذا الرمز ايحاء بالقرب وايحاء بالحاجة الى الله سبحانه وطلب العطف والقرب [٢٣] .

حسن التخلص :

يتفاوت مفهوم التخلص عند القدماء . فإبن الاثير يرى أن التخلص الانتقال من معنى الى آخر غيره وجعل الاول سبباً إليه، فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر [٢٤] وهو ينشط السامع ويعين على الاصغاء الى ما بعده وهو مجرد كيفية الانتقال الى المقصود ثم تنتهي مهمة التخلص كما يرى ذلك القزويني [٢٥].

وتتوسع النظرة الى التخلص عند ابن ابي الاصبع المصري فيعدّ التخلص: هو معرفة الوصل من الفصل ، وهو أحد وجوه الاعجاز، وهو دقيق يكاد يخفى في غير الشعر ، إلا على الحذّاق من ذوي النقد، وهو مبثوث في الكتاب العزيز [٢٦] ثم تتوسع النظرة بصورة اكبر عند بعض المحدثين من خلال دراستهم النص القرآني في جملته دراسة اسلوبية ، يظهر فيها أن التخلص : سمة اسلوبية في النص القرآني، وهو القانون العام الذي ينتظم الصياغة الكلية لهذا النص الفريد . فالنص القرآني بنية قائمة على التخلص . وهذه البنية تتميز بالاصالة والمرونة، ولكل جزيئة من جزيئاتها قدرتها على الاستقلال والاندماج معاً، بيد أنها في مجملها

تتصف بقدر كبير من الشمول والتحول [٢٧] فهي صورة واحدة من الكمال وإن اختلفت اجزاؤها في جهات التركيب [٢٨] .

وإن التخلص من الافتتاح الى الغرض الذي سيقت له السورة يقتضي النظر الى ما يحتاج اليه ذلك الغرض من المقدمات، والى انجرار الكلام من المقدمات الى ما بعده، وهذا أمر كلي ينظر اليه في جميع القرآن [٢٩] .

ويبدو أن التخلص لا يقتصر على الخروج من المقدمات الى الاغراض حسب وانما الخروج من أجزاء الكلام ــ واقصد هنا النص القرآني ــ الذي يقف القاريء عنده مستفهماً كيف ستكون العبارة الآتية فاذا قرأ ما بعد ذلك اطمئنت نفسه وقد تلاشت الفجوات والتئم النص المعجز فناً ومعنىً . فالخطاب العام للمؤمنين في مقدمة السورة "يا ايها الذين آمنوا أوفوا بالعقود " لازمته عبارة " احلت لكم بهيمة الانعام " في آية واحدة وعبارة واحدة والعبارتان ذات معنيين وليس معنى واحد ولكن نجد التلازم بين العبارتين من حيث الاسلوب ثم التخلص الى مقدمة ثانية يشعر القاريء أن بعد أحكام الحلال سيرد تفصيل بأحكام تتعلق بالحلال والحرام وهكذا تتلازم الايات وتتناسق في عموم النص . فجملة: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [٣٠] تمهيد يحسن التخلص منه لما سيرد بعدها من المنهيات ، كقوله تعالى : غير محلي الصيد .. " وقوله : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْأَثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [٣١] التي هي من عقود شريعة الاسلام ،فكان الابتداء بذكر بعض المباح امتناناً وتأنيساً للمسلمين ليتلقوا التكاليف بنفوس مطمئنة ، فالمعنى: إن حرمنا عليكم أشياء فقد ابحنا لكم اكثر منها [٣٢] .

لذلك حسن التخلص بعد ذكر الامر بالايفاء بالعقود على الاجمال ثم ذكر ما أحل على الاجمال ايضاً.

جاء في التحرير: إن أصحاب الكندي قالوا له : ايها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن ، قال : نعم اعمل لكم مثل بعضه ، فاحتجب عنهم أياماً ثم خرج فقال : والله ما أقدر عليه ولا يطيق هذا احد ، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فاذا هو قد أمر بالوفاء ونهى عن النكث ،وحلل تحليلاً عاماً ،ثم استثنى استثناء بعد استثناء ثم اخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يستطيع أحد ان يأتي بهذا في أجلاد [٣٣] وبهذا حسن الخروج من العام الى الخاص .

وفي قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [٣٤].

فالخطاب لعموم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وهذا نهي لاهل الكتاب الحاضرين عن متابعة تعاليم الغلاة من أحبارهم ورهبانهم الذين اساءوا فهم الشريعة عن هوى منهم مخالف للدليل، فلذلك سمى تغاليهم أهواء .

وجاء بعد ذلك قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [٣٥] . فجملة " لعن" مستأنفة استئنافاً بيانياً فيها " تخليص بديع " لتخصيص اليهود بالانحاء عليهم دون النصارى ، وهي خبرية مناسبة لجملة" قد ضلوا من قبل " تتنزل منها منزلة الدليل، لان فيها استدلال على اليهود بما في كتبهم وبما في كتب النصارى، والمقصود اثبات أن الضلال مستمر فيهم، فإن ما بين داود وعيسى أكثر من الف سنة [٣٦] .

وقد يستأنف الكلام أو يستثنى أو يعترض ليتخلص منه الى بيان حكم مبهم أو تفسيره، فقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ..ورضوانا﴾[٣٧] ــ أي : لا تحلوا المحرّم منها ــ هذه الآية اعتراض بين الجمل التي قبلها وجملة ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [٣٨] ولذلك اعيد الخطاب بالنداء بقوله: "يا أيها الذين آمنوا" وتوجيه الخطاب الى الذين آمنوا مع أنهم لا يظن بهم احلال المحرمات ، يدل على أن المقصود النهي عن الاعتداء على الشعائر الالهية التي يأتيها المشركون كما يأتيها المسلمون [٣٩] .

وقوله تعالى: إلا ما يتلى عليكم" استثناء من بهيمة الانعام "وما يتلى عليكم " مبهم مفسر بقوله "حرمت عليكم" (٤٠) .

وقوله " حرمت عليكم الميتة " استئناف بياني ناشيء عن قوله : " احلت لكم بهيمة الانعام إلا ما يتلى عليكم " فهو بيان " ليس بحلال في الانعام (٤١) . فقوله تعالى: " أحلت لكم بهيمة الانعام إلا ما يتلى عليكم" استثناء مجمل بينه في آية أخرى بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ..﴾ (٤٢) . وقوله : ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ ﴾ (٤٣) . فهذا الابتلاء مجمل لا يعلم أحد في الحل أم في الحرم بيّنه بقوله : ﴿ لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ (٤٤) .

الاختتام :

الخواتم: جمع خاتمة من الفعل ختم يختم . قال الازهري " ت : ٣٧٠هـ "

" والختام : الذي يختم به على كتاب ... " (٤٥) .

وقال الزمخشري: " ت ٥٣٨هـ " وهذه خاتمة السورة وكل أمر، والامور بخواتيمها " (٤٦) .

والخاتمة " مثل الفواتح في الحسن ... " (٤٧) .

وخاتمة سورة المائدة قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٨) .

وهذا الكلام الجليل مؤذن بانتهاء الكلام، لان هذه الجملة جمعت عبودية كل الموجودات لله تعالى ، فناسب ما تقدم من الرد على النصارى ، وتضمنت ان جميعها في تصرفه تعالى، فناسبت ما تقدم من جزاء الصادقين . وفيها معنى التفويض لله تعالى في كل ما ينزل، فآذنت بانتهاء نزول القرآن ، على القول بأن سورة المائدة آخر ما نزل، وبإقتران وفاة رسول الله ﷺ ، لما في الآية من معنى التسليم لله وأنه الفعّال لما يريد " (٤٩) . ونجد ايضاً في هذه الخاتمة رد العجز على الصدر، فمعنى التسليم الموجود في الخاتمة وانه الفعّال لما يريد يعود بالمعنى الى قوله في أول السورة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (٥٠) وبذلك تلتقي فاتحة السورة بخاتمتها .

ثم تلتقي مرة أخرى، يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ..﴾ (٥١) : فان قلت : في السموات والارض العقلاء وغيرهم، فهلا غلب العقلاء فقيل: " ومن فيهن" ؟ قلت: " ما " يتناول الاجناس كلها تناولاً عاماً، ألا تراك تقول إذا رأيت شبحاً من بعيد : ما هو؟ قبل أن تعرف اعاقل أم غيره ، فكان أولى بإرادة العموم " (٥٢) وهذا يناسب أول السورة في صفة العموم .

ثم تلتقي خاتمة هذه السورة بفاتحة السورة بعدها . فلما ختم سورة النساء أمراً بالتوحيد والعدل بين العباد، أكد ذلك بقوله في أول السورة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (٥٣) .

الدلالة البلاغية في المتشابه الاسلوبي في السورة :

يأتي الكلام في القرآن الكريم في صور شتى وفواصل مختلفة ، وحكمته التصرف في الكلام واتيانه على ضروب؛ ليعلم بذلك عجز الانسان عن جميع الطرق: مبتدأ به ومتكرراً (٥٤) .

وفي هذا المبحث توجيه ما تكرر من الآيات في سورة المائدة لفظاً، أو اختلف بتقديم أو تأخير، أو حذف أو ذكر، وبعض زيادة في التعبير، وغير ذلك فمما ورد فيه بعض زيادة في التعبير قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ (٥٥) بزيادة لفظ " بهيمة" على ما جاء في سورة الحج قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ﴾ (٥٦) والمقصود في الآيتين مختلف، فوردت الالفاظ بما يحرز ذلك . وبيانه أن اسم الانعام إنما يقع على ما ذكر في آية سورة الانعام من الازواج الثمانية في قوله تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ (٥٧) ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ (٥٨) .

أما " بهيمة" الانعام فيقول القرطبي: " بهيمة الانعام :وحشيها" [٥٩] ويقول الزمخشري: بهيمة الانعام : الضباء وبقر الوحش [٦٠] .

ووجه وقوعها في آية المائدة : أن آية المائدة من آخر ما نزل. وقد تضمنت متممات من الاحكام، كآية الوضوء والتيمم ، وتفاصيل الصيد، واستيفاء المحرمات من المأكولات والمشروبات ،وفي هذه السورة ايضاً ورد قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً﴾ [٦١] فناسب هذا ذكر حلية بهيمة الانعام الحاقاً لها بالانعام إذ لم يذكره الله في غيرها، على نحو قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ [٦٢] ثم اتبع بقوله : ﴿ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ﴾ [٦٣] لان هذه عوارض تكثر في الوحشي. فيعلم من ذلك أن غير الاصناف الثمانية هو من الوحشي الذي لا يدرك إلا بالصيد محرم على الحاج ما دام في عمله . قال تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾ [٦٤] .

ولما كانت آية الحج مناطة بما أجيز به الحاج من تعظيم شعائر الله منها ما يحل أكل لحمه للمحرم حال إحرامه فقال تعالى : " واحلت لكم الانعام" ولا يحتاج هذا الموضع الى ذكر البهيمة . فلم يكن ليلائم هذا الموضع ما ورد في آية المائدة من قوله : " أحلت لكم بهيمة الانعام" لان غير الاصناف الثمانية هو من الوحشي المحرم صيده وأكله وقت الاحرام للحج . فقد أشارت السورة الى ذلك بقوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [٦٥] . وفسّر الصيد بقوله: ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُما﴾ [٦٦] . فوضح التناسب في زيادة التعبير في موضع وبدون زيادة في موضع آخر في النص القرآني [٦٧] .

ومن الزيادة ايضاً في قوله تعالى في سورة المائدة : " ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [٦٨] .

وقوله في سورة الفتح : ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ [٦٩] .

فماالمقصود بزيادة " لكم" في سورة الفتح وحذفها في سورة المائدة ؟

الجواب : ان في آية المائدة عموم يستدعي الاطلاق وفي سورة الفتح خصوص يستدعي التخصيص . ذلك ان الاخبار في سورة المائدة انما هو النصارى. قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [٧٠] .

وهذا حكاية قولهم ، ثم أعلم تعالى بقدرته وقهره للكل فقال: قل لهم يا محمد من يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وامه ومن في الارض جميعاً، فعم الكل فلم يكن ليناسب هذا العموم أداة خطاب تخص .

أما آية سورة الفتح فقبلها إخباره سبحانه عن المتخلفين عن غزوة الحديبية . قال تعالى : ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [٧١]. ثم أعلم تعالى نبيه عليه السلام والمؤمنين ان قول هؤلاء المخلفين قول بألسنتهم غير مطابق لما في قلوبهم فقال تعالى: قل لهم يا محمد من يملك لكم معشر المخلفين من الله شيئاً، فالاخبار هو عنهم والخطاب بما يعد لهم . لذلك جاءت آية الفتح على التخصيص بذكر " لكم ".

ومنها ايضاً : في قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [٧٢] .

وفي سورة التغابن: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [٧٣].

فورد في آية المائدة زيادة " واحذروا" وزيادة" فاعلموا" مع اتحاد ما تضمنته الآيتان من الامر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله والتحذير من التنكب عن ذلك والتولي فما وجه ذلك؟

الجواب والله أعلم :

ان آية المائدة لما أعقب بها آية الامر باجتناب الخمر وما ذكر معها، ثم اتبع بعد ذلك بذكر العلة في تحريمها . فقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ.. الى قوله: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٧٤) فختمت من التهديد بما يشعر بشديد الوعيد ، ناسب ذلك قوله تأكيداً لما تقدم من الاشعار بخوف الجزاء قوله : " فاحذروا" وقوله: " فان توليتم فاعلموا" لما في ذلك من التأكيد لما تقدم.

أما آية التغابن فلم يرد قبلها ما يستدعي هذا التأكيد ، ألا ترى الوارد فيها من قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٥) . فلما لم يرد هنا نهي عن محرم متأكد التحريم بما اتبع النهي من التهديد والتأكيد لم يرد هنا من الزيادة المحرزة لمعنى التأكيد ما ورد هناك ، فجاء كل على ما يجب ويناسب وليس عكس الوارد يناسب (٧٦) .

ومن المتشابه اللفظي ايضاً ما يكون في اختلاف الفاصلة نحو قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٧).

وفي سورة النحل: ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (٧٨) .

فورد في الآيتين اتمام نعمته سبحانه على عباده بعبارة متحدة ثم اختلف المترجى منه سبحانه جزاء على ذلك .

والجواب على ذلك : أن آية المائدة خطاب للمؤمنين بما يجب عليهم من الطهارة لصلاتهم وتعليم لهم كيفية عملهم في ذلك وإنعام عليهم برخصة التيمم إذا عدموا الماء، وكل هذا مستوجب للشكر لله سبحانه فقيل في ختام هذه الآية : " لعلكم تشكرون " .

وأما أية النحل فان السورة كلها مكية إلا آيات من آخرها، وغالب حالها أنها خطاب لكفار قريش ومن كان مثلهم، ألا ترى افتتاحها بقوله تعالى : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (٧٩) . وانما هذا خطاب للمرتابين في الساعة تكذيباً وكفراً ثم قال : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٨٠) . وقوله بعد: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(٨١) وقوله : ﴿ .. قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨٢) وقوله : ﴿ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوت ﴾ (٨٣) وقوله:﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ (٨٤) وقوله : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ..﴾ (٨٥) . وعلى هذا استمرت سورة النحل في خطاب الكفار وقد تخللها من تذكيرهم بأنعام الله كثير الى قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ (٨٦) . وكل هذا تذكير بعجائبه ثم اعقب ذلك بقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (٨٧) أي تدخلون في دين الله ، أما آية المائدة فلم يقع قبلها خطاب لغير المؤمنين ولم يخاطبوا باسم الايمان إلا واسلامهم حاصل . ولم يكن ليلائم في كل من ختام الآيتين إلا الوارد فيه والله أعلم بما أراد (٨٨) .

ومن المتشابه اللفظي قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٨٩) .

وقوله في سورة المائدة ايضاً : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٩٠) .

في الاولى قال: " إن الله عليم بذات الصدور" وفي الثانية قال: " إن الله خبير بما تعملون " . ما موجب ذلك؟ الجواب: غاير بينهما لان الاولى وقعت في النية المأخوذة من آية اليتمم والوضوء ، والنية محلها ذات الصدور ، والثانية في العدل في العمل (٩١) . و" إن الله عليم بذات الصدور" ، تذييل للتحذير من اضمار المعاصي، وحرف " إن" افاد أن الجملة علة لما قبلها على الاسلوب المقرر في البلاغة (٩٢) في قول بشار : إن ذاك النجاح في التبكير " (٩٣) .

ومن التشابه اللفظي ما يكون في التقديم والتأخير نحو تقديم الرحمة قبل العذاب .

فمن أساليب القرآن: حيث ذكر الرحمة والعذاب أن يبدأ بذكر الرحمة كقوله تعالى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ (٩٤) .

وعلى هذا جاء قول النبي ﷺ حكاية عن الله تعالى : " إن رحمتي سبقت غضبي" (٩٥) .

وقد خرج عن هذه القاعدة مواضع اقتضت الحكمة فيها تقديم ذكر العذاب ترهيباً وزجراً منها قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٩٦] .

وذلك: لانها وردت في ذكر قطّاع الطريق والمحاربين والسّراق [٩٧] فكان المناسب تقديم ذكر العذاب ، ولهذا ختم آية السرقة بـ " عزيز حكيم" وختم الآية التي نحن بصددها بالقدرة مبالغة في الترهيب لان من توعده قادر على انفاذ الوعيد[٩٨] .

ومن المتشابه في التقديم والتأخير في سورة النساء ، إذ قدم العدل بقوله تعالى: ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [٩٩] . وفي سورة المائدة ، إذ قدم الوفاء بالعهد بقوله تعالى : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [١٠٠] .

ووجه ذلك : ان الآية التي وردت في سورة النساء وردت عقب آيات القضاء في الحقوق المبتدأة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ [١٠١] ثم أردفت بأحكام المعاملة بين الرجال والنساء، فكان الاهم فيها أمر العدل فالشهادة . فلذلك قدم فيها : " كونوا قوامين بالقسط شهداء لله " فالقسط فيها هو العدل في القضاء ولذلك عدّى اليه بالباء إذ قال " كونوا قوامين بالقسط ".

وأما الآية التي نحن بصدد تفسيرها فهي واردة بعد التذكير بميثاق الله، فكان المقام الاول للحض على القيام لله أي الوفاء له بعهودهم له، ولذلك عدى قوله "قوامين لله" باللام. وإذ كان العهد شهادة اتبع قوله " قوامين لله" بقوله: " شهداء بالقسط " أي شهداء بالعدل شهادة لا حيف فيها وأولى شهادة بذلك شهادتهم لله تعالى[١٠٢] .

في هذا المبحث يمكن الاجابة على الاسئلة الآتية وهو خاص بالاتجاهات الاسلوبية للسورة .

أما الاساليب البلاغية فلها مبحث آخر لاحق .

س١: ما مغزى تصدير سورة المائدة بالامر بالايفاء بالعقود ؟

س٢: ما مناسبة افتتاح سورة المائدة بالايفاء بالعقود بخاتمة سورة النساء ؟

س٣: ما مناسبة خاتمة سورة المائدة بخاتمة سورة النساء ؟

س٤: ما مناسبة افتتاح سورة النساء بخاتمة سورة المائدة ؟

س٥: لماذا جعلت سورة المائدة في المصحف قبل سورة الانعام مع أن سورة الانعام أكثر منها عدد آيات ؟

س٦: لماذا افتتحت سورة المائدة بنداء الذين آمنوا ؟

س٧: لماذا كان النداء بـ " يا" النداء الصريحة ؟

س٨: ما مفهوم التخلص في الآيات وفي مجمل النص القرآني ؟

س٩: هل يقتصر التخلص على الخروج من المقدمات الى الاغراض في النص القرآني ؟

س١٠: كيف تخلص الاسلوب القرآني من الامر بالايفاء بالعقود الى ما بعده ؟

س١١: لماذا أعيد الخطاب بالنداء بقوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا " ؟

س١٢: ما علاقة رد العجز على الصدر في قوله تعالى في اول سورة المائدة: " ان الله يحكم ما يريد" ؟

س١٣: لماذا اختلف التعبير بزيادة لفظ " بهيمة" في سورة المائدة " احلت لكم بهيمة الانعام " على ما جاء في سورة الحج : " احلت لكم الانعام " ؟

س١٤: لماذا اختلف التعبير بزيادة لفظ " لكم " في سورة الفتح في قوله تعالى: " قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن اراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً " الآية /١١ على ما جاء في سورة المائدة بحذف " لكم " في قوله تعالى : " قل فمن يملك من الله شيئاً إن اراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الارض جميعاً"؟

س١٥: لماذا اختلف التعبير بزيادة لفظ " واحذروا" وزيادة " فاعلموا" في آية المائدة قوله تعالى : " واطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأحذروا فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين " الآية /٩٢ على ما ورد في سورة التغابن : "واطيعوا الله واطيعوا الرسول فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين " التغابن/ ١٢ ؟

س١٦: لماذا اختلف التعبير في الفاصلة في قوله تعالى في سورة المائدة: " وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون " . وفي سورة النحل: " كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون " ؟

س١٧: لماذا تقدم ذكر العذاب على الرحمة في قوله تعالى : " ألم تعلم ان الله له ملك السموات والارض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير"؟

س١٨: لماذا تقدم العدل في قوله تعالى في سورة النساء: " كونوا قوامين بالقسط شهداء لله " ؟ ولماذا تقدم الوفاء بالعهد في سورة المائدة بقوله: " كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ؟

المصادر

القرآن الكريم .

١- ديوان جرير : دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م.

٢- ينظر: البرهان في علوم القرآن بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت:٧٩٤هـ) تحـ محمد ابو الفضل ابراهيم دار المعرفة ، ط٢، بيروت (ب.ت) ٣٣٠/١ ، التحريروالتنوير ٧١/٦.

٣- سورة المائة : الآية ٣.

٤- ينظر: النص القرآني من الجملة الى العالم وليد منير ، المعهد العالمي للفكر الاسلامي ، سلسلة المنهجية الاسلامية ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م: ص ٧٩.

٥- سورة المائدة : الآية ١.

٦- ينظر: التحرير والتنوير محمد الطاهر بن عاشور – الدار التونسية للنشر (د.ت) : ٧٤/٦.

٧- المائدة : الآية ١ .

٨- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت (د.ت) : ٦٠١/١.

٩- النساء : الآية ٣٣.

١٠- النساء : الآية ٩٠.

١١- النساء: الآية ٩٢.

١٢- ينظر: قطف الازهار في كشف الأسرار جلال الدين عبد الرحمن السيوطي د.ت : ٩١١هـ تحـ : د.احمد محمد الحمادي ، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية – قطر ، ط١ ، ١٩٩٤، ص ١٣١.

١٣- المائدة : الآية ١٢٠.

١٤- النساء : الآية ١٧٦.

١٥- ينظر: قطف الازهار ، ص ١١٠.

١٦- المائدة : الآية ١.

١٧- المائدة: الآية ١.
١٨- ينظر: البرهان في علوم القرآن، ٢/٢٤٧.
١٩- والسور العشر هي: النساء، المائدة، الحج، الأحزاب ، الحجرات، الممتحنة، الطلاق، التحريم، المزمل ، المدثر .
٢٠- البقرة : الآية ١٢٧.
٢١- النساء : الآية ١.
٢٢- المائدة: الآية ١.
٢٣- ينظر: النص القرآني من الجملة الى العالم : ٨٥.
٢٤- ينظر: المثل السائر في ادب الكاتب الشاعر – ضياء الدين بن الاثير " ت: ٦٣٧ هـ ، تحـ : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة البابي الحلبي – القاهرة : ١٣٥٨هـ = ١٩٣٩م : ٢/٢٥٨.
٢٥- التلخيص في علوم البلاغة – جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب " ت: ٧٣٩هـ ، تحـ عبد الرحمن البرقوقي دار الكتاب العربي ، بيروت (د.ت) : ٤٣٢.
٢٦- ينظر: بديع القرآن – عبد العظيم عبد الواحد المعروف بأبي الاصبع المصري " ت٦٥٤ هـ تحـ : حفني شرف مكتبة النهضة مصر – القاهرة ط١، ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م : ١٦٨، التحرير والتنوير :٦/ ٤٣٣.
٢٧- ينظر: النص القرآني : ٥١، ٦٢.
٢٨- ينظر: تأريخ آداب العرب مصطفى صادق الرافعي ، المكتبة التجارية بالقاهرة ، ط٣،١٣٧٣هـ = ١٩٥٢م : ٢/٢٤١.
٢٩- ينظر: الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، الشافعي (ت: ٩١١هـ) تحـ : محمد ابو الفضل ابراهيم – مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني ، مصر ، ط١ ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م : ٣/٣٢٨.
٣٠- المائدة: الآية ١.
٣١- ينظر: المائدة : ٢.
٣٢- ينظر: التحرير والتنوير : ٦/٧٤.
٣٣- م.ن : ٦/٨١.
٣٤- المائدة : الآية ٧٧.
٣٥- المائدة: ٧٨.
٣٦- ينظر: التحرير والتنوير : ٦/٢٩١.
٣٧- المائدة : ٢.
٣٨- المائدة : ٢.
٣٩- ينظر: التحرير والتنوير : ٦/٨١.
٤٠- تفسير النهر الماد من البحر المحيط : ١/٥٤٣، لابي حيان الاندلسي، المتوفى سنة ٧٥٤هـ، مؤسسة الخدمات والابحاث الثقافية ، دار الجنان ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
٤١- ينظر: التحرير والتنوير :٦/٨٨.
٤٢- المائدة : الآية ٣.

٤٣- المائدة: الآية ٩٤.
٤٤- المائدة: الآية ٩٥.
٤٥- تهذيب اللغة – محمد بن احمد الازهري ت ٣٧٠هـ ، القاهرة : ١٩٦٧م: ٣١٣/٧.
٤٦- أساس البلاغة جار الله ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، ت ٥٣٨هـ، تحـــ : عبد الرحمن محمود ، احياء المعاجم العربية ، ١٣٧٢=١٩٥٣م – بمصر : ٢١٥.
٤٧- البرهان في علوم القرآن : ٢٦٤/١.
٤٨- المائدة : الآية ١٢٠.
٤٩- التحرير والتنوير : ١١٩/٧.
٥٠- المائدة: الآية ١.
٥١- المائدة: الآية ١٢٠.
٥٢- الكشاف: ٦٩٧/١.
٥٣- المائدة: الآية ١.
٥٤- ينظر: البرهان في علوم القرآن :١٤٦/١.
٥٥- المائدة: الآية ١.
٥٦- الحج: الآية ٣٠.
٥٧- الانعام: الآية ١٤٣.
٥٨- الانعام: الآية ١٤٤.
٥٩- الجامع لأحكام القرآن – لأبي محمد بن احمد الانصاري القرطبي ، ت٦٧٢هـ ، دار احياء التراث العربي ، بيروت (د.ت) : ٣٤/٦.
٦٠- الكشاف: ٦٠١/١.
٦١- المائدة: الآية ٣.
٦٢- المائدة: الآية ٣.
٦٣- المائدة: الآية ٩٦.
٦٤- المائدة: الآية ٩٦.
٦٥- المائدة: الآية ١.
٦٦- المائدة: الآية ٩٦.
٦٧- ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الالحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من أي التنزيل – احمد بن الزبير الغرناطي " ت: ٧٠٨هـ تحـ سعيد الفلاح- دار المغرب الاسلامي ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م: ٣٦٥/١-٣٦٨.
٦٨- المائدة: الآية ١٧.
٦٩- الفتح: الآية ١١.
٧٠- المائدة: الآية ١٧.
٧١- الفتح: الآية ١١.
٧٢- المائدة: الآية ٩٢.
٧٣- التغابن : الآية ١٢.
٧٤- المائدة: الآية ٩١.
٧٥- التغابن: الآية ١١.

٧٦- ينظر: ملاك التأويل :١/٤٠٦ـ٤٠٧.
٧٧- المائدة: الآية ٦.
٧٨- النحل: الآية ٨١.
٧٩- النحل : الآية ١.
٨٠- النحل: الآية ١.
٨١- النحل: الآية ٢٠.
٨٢- النحل: الآية ٢٤.
٨٣- النحل: الآية ٣٨.
٨٤- النحل: الآية ٦٢.
٨٥- النحل: الآية ٧٣.
٨٦- النحل: الآية ٨١.
٨٧- النحل: الآية ٨١.
٨٨- ينظر: ملاك التأويل بكشف ميلتبس في القرآن ، أبو يحيى الانصاري ،ت ٩٢٦هـ تحـ : محمد علي الصابوني ، ط١٤٠٥،١هـ = ١٩٨٥ : ٣٧٢ـ٣٧٤.
٨٩- المائدة: الآية ٧.
٩٠- المائدة: الآية ٨.
٩١- ينظر: فتح الرحمن: ٩٦.
٩٢- التحرير والتنوير :
٩٣- ديوان بشار بن برد – ملحقات الديوان تحـ : محمد الطاهر بن عاشور – الشركة التونسية ، ١٩٧٦م ،جـ ٤:
٩٤- المائدة: الآية ١٨.
٩٥- الدر المنثور : ٣/٦.
٩٦- المائدة: الآية ٤٠.
٩٧- في ذكر قطاع الطرق والمحاربين والسراق : الآيتان٣٣، ٣٨ من سورة المائدة .
٩٨- ينظر: البرهان في علوم القرآن : ٤/٧٧.
٩٩- النساء: الآية ١٣٥.
١٠٠-المائدة : الآية ٨.
١٠١-النساء: الآية ١٠٥.
١٠٢-ينظر: التحرير والتنوير : ٦/١٣٥،١٣٤.